

تطور مفهوم النحن فى المجال العام المصرى: دراسة سوسىولوجية

د. هدى عبد المنعم زكريا

مقدمة:

لا يختلف المهومون بأمر هذا المجتمع على أنه يعيش أزمة بنائية تلمس كافة أبعاد البنية الاجتماعية المصرية، فقد شهد البناء الاجتماعى المصرى تحولات أدت الي تدهور أوضاع الطبقة المتوسطة وانكماشها بفعل هبوط نسبة كبيرة من أفرادها نحو القاع الاجتماعى، كما أدت تلك التحولات الي استقطاب رأس المال نحو قمة الهرم الاجتماعى حيث تركزت الثروة القومية في أيدي حفنة قليلة من الأغنياء الجدد فضلا عن استثناء ممارسة المهن الرثة التي يضطر لممارستها من يعانون البطالة ويفقدون فرص العمل المنتج. كما تفتت البنية السياسية وفقدت تماسكها، بمباركة صفوة سياسية رأت فيما لحق بالبناء السياسى من تفكيك وضعف علامة علي الصحة والحيوية واكتساب للتعددية والديمقراطية.

وقد لفت "هابرماس" النظر الي العلاقة الوثيقة بين أزمة التماسك البنائى وما يدور في ساحة المجال العام من صراعات المصالح والأفكار والرؤى الايديولوجية ، فلاشك أن المجال العام يتأثر سلبا وإيجابا بسلامة البنية الاجتماعية وثباتها وكذلك بتفككها وارتباكها، مما يضيق مناطق الاتفاق الأساسية التي يتكون في اطارها الرأي العام للمجتمع ،وما يترتب علي ذلك كله من أن يصبح المجال العام أجوفا فارغا من أهم عناصره الثقافية أو أن يضيق ليقصر علي العائلة والمصالح الضيقة للأفراد.

وقد امتدت آليات التفكيك الي الذاكرة الجمعية الغنية والحافلة بالأحداث التاريخية، لتصبح نهبا للعبث والتخريب ، مما يجعل الخطر يمتد الي اساسيات تكوين الضمير الجمعي للجماعة المصرية، ويفتح الباب لنية تقسيم شريرة تستهدف الكيان الاجتماعى ان لم يكن الوجود نفسه.

أولاً : أهداف الدراسة :

- 1- التعرف على الطريقة التي تطور بها مفهوم النحن فى السياق البنائى - التاريخى المصرى.
- 2- المساهمة في ضخ قدر من الطاقة الايجابية في جنبات المجال العام المصرى ، الذي يعاني من التآكل نتيجة زحف المؤسسات السياسية للاستحوازه بما يؤثر عليه سلبا فيعجز عن أداء مهمته في التوفيق بين المطالب المتعارضة للمواطنين ليصبح هو نفسه مجالا للمنافسة بين السياسيين .

3- الكشف عن الكيفية التي يتعرض بها الضمير الجمعي المصري لآليات التفكيك التي تضرب في قلب التماسك البنائي للمجتمع ، بهدف الاحتشاد من القوي الوطنية الفاعلة ثقافيا وسياسيا لدرء الخطر المائل واستعادة القدرة علي حشد الطاقات الابداعية من أجل مشروع جديد للنهضة.

ثانياً : المعالجة النظرية للموضوع:

من المهم أن نشير ابتداء الي أن المجال العام بالعني الهابرماسي هو "تلك الساحة التي يجري فيها ارتياد الأفكار والتعبير عن الرأي في المجتمعات الحديثة "وبصورة أكثر تفصيلا" هو ذلك الحيز من حياتنا الذي يمكن من خلاله تشكيل ما يعتبر رأياً عاماً ، والمتوقع أن تحاول الجماعات الاجتماعية أن تقيّد من قدراتها الفكرية وعقلانياتها في مناقشة المسائل العامة، وفي هذا الصدد يؤكد هابر ماس أن المجال العام هو فضاء سياسي . من خلاله - يستطيع المواطن أن يتخذ موقف المراقب لجهاز الدولة - سواء من خارجها حيث يمارس دوره في نقدها - أو من داخلها كعضو في السلط التشريعية ومن ثم فالمجال العام يقف ضد الدولة وفي مواجهتها، حيث تدور الحوارات والنقاشات علي القضايا الخلاقية للمجتمع ويعبر فيها المواطنون عن آرائهم بحرية ، والمجال العام في رأيه لا يقتصر علي الحوار والنقاش بل هو يشهد أيضا صراع المصالح والأفكار والرؤي الدينية والايديولوجية ، كما أن المجال العام نسبي من حيث الضيق والاتساع ومن حيث سيادة قيم العقلانية أو الايديولوجية علي ساحته. فاذا سجلنا - بصورة عشوائية - في المجتمع المصري بعض لقاءات الناس في النوادي والمطاعم والمواصلات العامة والمستشفيات وقاعات المؤتمرات والندوات .. الخ، فسوف نلاحظ أن هناك حالة من عدم الاتفاق علي ابسط المبادئ الانسانية وأكثر القيم والمعايير شيوعا، مما يخلق حالة من التشظي والارتباك في ممارسة التفاعل الاجتماعي بين الأفراد، وهي حالة تتناقض تماما مع ما اعتاده الناس في المجتمع المصري عند خروجهم للمجال العام ، حيث كانت حواراتهم تعلي قيم الجماعة مقابل تراجع قيم الأناية والفردية، كما كانوا يحرصون علي اعلان التطابق والاتفاق مع المعاني الجمعية المشتركة ؛ كالعيب والحرام وأصول التربية... الخ .

والمثال الواضح علي ذلك أن استخدام الناس لكلمة "نحن" كان يعلي من شأن الهوية الوطنية التي تجمع ولا تفرق في مقابل حالة من انكار الذات الفردية ، فكان من الواضح أن المجال العام منضبط بقيم الجماعة التي كانت تسيطر عليه وتوجهه.

لكن الحاصل أن استخدام الناس لمفهوم "نحن" صار مقتصر علي فئة بعينها مع استبعاد وتهميش الفئات الأخرى والتي كان من المفروض أن تتكامل وتندمج معا؛ فرجال الدولة والمسئولون

يستخدمون في خطابهم "نحن" حكومية متعالية تستبعد المواطن وتشير اليه بصفته "رعية" وليس مواطنا وتعد ما تمارسه ازاءه من واجبات من قبيل "المن" وليس الواجب كما تعلقو نغمة "نحن" ايدولوجية دينية تصنف أصحابها بهويتهم الدينية، مقابل تراجع الهوية الوطنية فتتفي المصري من مصريته لتحجزه في اسلامه أو مسيحيته. أما نحن الذكورية الرجالية فتبرز الهوية البيولوجية والجنسية وتعليها علي الهوية الانسانية التي تضم الجنسين معا(الرجال والنساء) كما تتحدث الصفة من خلال نحن اغترابية لاتري مجالا لاحتواء نحن الشعبية وهكذا.

ثالثاً : المعالجة المنهجية للموضوع :

تتشغل الدراسة ب"النحن" كمفهوم محوري وتفترض أنه يعاني أزمة نتيجة عوامل "النحر" التي تدخلت في تشكيله علي نحو مفتت بفعل أليات التفكير البنائي والتي سنعرض لها بالتفصيل فيما بعد. والأسئلة التي تفرض نفسها وتفترض أن تسعى الدراسة لاجابتها هي :ماهي القوى المهيمنة فكريا وثقافيا وسياسيا علي المجال العام؟

والأهم أن نسال : هل يسمح المجال العام في ظروفنا الراهنة بالطرح الموضوعي للهموم البنائية للمجتمع المصري ،في ظل مناخ صراعي يجعل من الوصول الي درجة معقولة من الاتفاق علي قيم ومعايير يمكن أن تسهم كميكانيزمات في حل المشكلات الاجتماعية والسياسية مادة الدراسة ومنهجها :

لما كان موضوع الدراسة يفرض أدواتها المنهجية ومادتها التي سنعتمد عليها في اختبار الفروض، فان التاريخ يمثل الوعاء الغني بالمادة التي تتضمن وقائعا وأحداثا بارزة في التاريخ المصري، كما تتضمن مذكرات الزعماء والقادة ،فضلا عن أناشيد صوفية وخطب سياسية ...الخ.

1- وفي هذا الصدد سيكون علي الباحثة أن تقدم قراءة سسيولوجية للمادة التاريخية ؛ بما تتضمنها من مواقف وأحداث قام المؤرخون باستعراضها بدقة لكنهم لم يقدموا لها تفسيرا علي أرضية ثقافية /سسيولوجية فظلت مجرد رؤية تجزيئية تؤدي بهم الي أحكام تفتقد الي العمق السسيولوجي فعلي سبيل المثال :

هم يسجلون وقائع الهزائم والانتصارات العسكرية من منطلق أحادي هو تسجيل الحدث بصفته هزيمة أو نصر من الناحية العسكرية، لكنهم لا يتعرضون للأبعاد الأخرى كأن يصحب النصر العسكري هزيمة ثقافية كما حدث في نصر الهكسوس العسكري علي مصر القديمة وهزيمتهم الثقافية أمامها.

2- ومن المنطقي أن تلجأ الباحثة الي أداة تحليل المضمون الكيفي لما تعرض من نصوص وتصريحات ووثائق ،وذلك لتفسيرها وشرحها والكشف عن دلالاتها السياسية والايديولوجية.

وسيدو هذا جليا من الموضوعين الآتيين :-

1- تسربت الي وعى الأفراد نغمة سياسية بدأت تتردد بصوت خافت، ثم ارتفعت وتعالى صوتها، تدعى أن مقتضيات العصر صارت تتطلب منا مرونة في تقييم موقفنا من الصراع العربى الاسرائيلى ،فالجوار الاسرائيلى ومعاهدة السلام والعولمة، صارت تمثل أسسا لرؤية كونية، تتجاوز المأساة الفلسطينية ،وشروط التسوية التي يؤكد الواقع اليومى كيف تتجاهلها مواقف الصلف الاسرائيلى، ويتمسك بها قادتنا الذين يلحون علينا بأن من يتمسك بموقفه الوطنى انما يتمسك بعبادة" توتم بدائى "أخطأنا بتقديسه فى الماضى، ثم استترنا بالحادثة فنبدناه.

ولم ننتظر طويلا، حتى فوجئنا بهجرة ما يزيد عن 28 ألف مصرى الى اسرائيل، للعمل والاستقرار والزواج ،من اسرائيات وانجاب جيل تعس ينتمى الى العدو بالام والى الوطن بالأب.

2- وفى الداخل تعمل آليات تفتيت الضمير الجمعى المصرى على اعادة تشكيل الوعى الاجتماعى للمواطن المصرى ،على أرضية الانتماء لدين معين، وليس لوطن معين بتأثير خطاب دينى يدفع الناس للكف عن استخدام كلمة" نحن " عندما يتحدثون عن الوطن، بعناصره الدينية المختلفة، حيث يأخذون فى تصنيف أنفسهم ،بصفتهم جزءا من الأمة الاسلامية التى ينبغى أن تتعامل مع المسلمين بصفتهم الدينية ،كجماعة واحدة، مهما تعددت الأوطان الظرفية والسياسية التى يعيشون فيها، ولا بد لها أن تتحد أخيرا، كما أصبح الخطاب الدينى حريصا علي استخدام مفردات لغوية سلفية مثل" أهل الذمة" عند الحديث عن مواطني هذه الأمة من المسيحيين ،وبالتالى فقد صار الاطار الموحد للفكر والسلوك والثقافة والارتباط بالارض مجالا للجدل،بعد أن صار الانتماء الدينى هو المعيار الأساسى.

واذن فنحن حسب المثال الأول، قد صرنا نعانى -كوطن- من المحاولات المستميتة لتذويب عناصرنا الوطنية الصلبة فى الاحماض الاسرائيلية /الامريكية، مع استدعاء مقصود للاساطير اليهودية، التى تستنفر فينا كراهية فترة تاريخية من ماضينا تفخر بها البشرية كلها، وهى الحقبة الفرعونية أما المثال الثانى :- فنلاحظ من خلاله أن سيف الانقسام الباترقد صارمعلقا بأعلى، مترقبا لحظات الغفلة، ليهبط علي مجتمعنا، ليشق القلب الواحد والحس الواحد والروح الواحدة، عامدا التعامل مع كرات الدم الحمراء والبيضاء (مسلمى ومسيحى مصر) ككيانات منفصلة وطوائف متناحرة، وليس كعنصر واحد يأبى أن يرتب مكوناته حسب أفضلية دينية أو عنصرية.

وليس بخاف على الأذهان أن الآليات التي تدفعنا الى قبول العدو، هي ذاتها التي تتكامل وتتناغم، مع آليات تفكيك مفهوم "النحن" من الداخل، حيث تتعالى أصوات ونداءات المرونة والتفاهم، اذا كان الحديث يدور حول الحوار مع اسرائيل. وهي ذاتها التي تستهض الصرامة، وترسم الحدود الفاصلة بين المصريين/ المصريين بصفتهم الدينية كمسلمين أومسيحيين. وهنا يمكن أن نسترشد باستعراض سريع لخطوات بعض الباحثين العلميين والمتقنين الذين انشغلوا بالشأن العام، وسوف نلاحظ أنهم طرحوا مجموعة من الملاحظات الجديرة بأن تثير السبيل لدراستنا هذه؛ منها علي سبيل المثال: تشخيص جلال أمين للأزمة البنائية في مصر بأنها نتاج لكوننا صرنا نواجه صوراً جديدة من القهر، الذي أصبحت احدى أدواته الأساسية هي التغريب الثقافي، ومحاولة سلخ الفرد من أمته أو تجريده من الشعور بالانتماء اليها، حتي يسهل اخضاع هذه الأمة لمختلف صور التبعية.

ومن يتتبع الضجة التي أثرت حول موضوع "صراع الحضارات" لصامويل هانتينجتون يلاحظ أن سيلا من الكتابات الداعية لفهم "الآخر"، وقبول الاختلاف معه، والاستغراق في نقد الذات، ان لم يكن جلدًا قد تدفق بصورة غير مسبوقة.

وقد ثار في نفسي سؤال: ماذا لو أننا أعطينا بعض الاهتمام للتركيز علي مفهوم "النحن" لأنه ليس من الصحي والمنطقي أيضا أن ننشغل بالآخر قبل أن نتفهم، وندرك "النحن" من حيث عناصرها وأساسياتها، حاضرها وماضيها، في ثباتها وديناميتها، بين الحريصين عليها والمتجاهلين لها، ولقد لاحظت أن الدراسات المعنية بالبحث في مشروع النهضة ووضع خطط التنمية كانت تبدأ-عادة- بالسؤال:

من نحن؟ ومن الخصم؟ كمدخل للحديث عن مشروع النهضة المامول فقام نادر فرجاني بوضع تصور مستقبلي لما يجب أن يكون عليه الحال في مجال تخليق هوية فاعلة، كما قام صلاح قنصوة بنقد اللاهثين وراء التفتيش عن هوية، يحددونها اتساقا مع موقف سياسي معين، ويرجعون الي التراث للبحث عن تبرير لها.

لذا فقد شغلني البحث في التاريخ المصري في محاولة للقبض علي آليات التماسك البنائي للمجتمع المصري عبر تاريخه الطويل، والكيفية التي استطاعت بها الجماعة المصرية أن تطور ضميرها الجمعي بما يكفل لها الاستمرار والازدهار. وذلك كمحاولة لتشخيص أزممتنا البنائية، وذلك من خلال تحليل مفهوم "النحن"

رابعاً : مفهوم نحن والنضج البنائي :-

يقول الدكتور علي مختار "ان دعاة النهضة في جميع الأمم ركزوا علي الجوانب الايجابية في تاريخهم، وأبرزوا أحداثه وشخصياته ورموزهم القومية، في كافة المجالات، بل وضخموا بعضها لغرس شعور الانتماء في شعوبهم للوطن والأمة، والحماس لمشروعهم القومي، وفي الصين استعمل ماوتسي تونج التراث الكونفوشيوسي العظيم، المتغلغل في وجدان الشعب الصيني، وأعاد تفسيره ضمن اطارايدولوجية عصرية، ليربط الشعب بمشروعه لتحقيق نهضة الصين الحديثة". لذا أظن أننا بحاجة الي الاسراع بالعمل علي اعمال التحليل الثقافي الاجتماعي في اكتشاف مناطق الدفع لحركة التقدم في بنائنا الاجتماعي، ومناطق الجمود والتراجع، وأظن أن علينا أن نبدأ بمكونات الضمير الجمعي أوبالكيفية التي تشكل بها الوعي الجمعي، حتي تحققت للبناء الاجتماعي تلك الدرجة من النضج، فلفقد ترسخ في الوعي الجمعي للمصريين- منذ فجر التاريخ- شعور حاد بالمسئولية عن ادارة النهر،الذى ما كان لينضبط في نظام الري، ما لم تمارس ذلك جماعة عالية الانضباط من البشر، فبغير ضبط النهر كان النيل سيتحول الي شلال جارف، وبغير ضبط الناس كان توزيع المياه سيتحول الي صراع دموى، وذلك عندما تقف مصالح الناس المائية في مواجهة بعضها البعض، مواجهة متعارضة دموية، ذلك أن كل من يقيم في أعلى النهر كان بإمكانه الاسراف في استخدام المياه، وحبسها عن يقيم في أسفله، وكذلك كل من كان موقفه عند بداية الترع، كان يختص نفسه بنصيب موفور من المياه، ويحجبها عن تقع أرضه عند نهايات الترع .

لكن المصريين لم يصلوا لهذه المرحلة المتقدمة، من الاستقرار والنهضة الا بعد أن دفعوا ثمنا غاليا لحياة الفردية والأناية، التي سبقت مرحلة الاستقرار، في مجتمع زراعي، عالي التنظيم، فعاشوا حقبة مريرة من صراعات الأقاليم، وتفتت السلطات وتعدد الملكيات، وارتباك نظام الري، الي أن قام الملك مينا بتوحيد القطرين؛ الشمالي والجنوبى للوادي، تحت حكومة مركزية قوية، ذات قدرة تنظيمية عالية فاستطاعت السيطرة على النهر، باقامة القناطر والسدود والخزانات، وهي مشروعات هائلة، لم تكن لتقوم الا من خلال قوة مركزية، صار من خلالها المتفرقون كيانا واحدا. متعاوننا، وهكذا استطاع نضج الشعور الوطني أن يطور مفهوم "النحن"، الذي قفز بالمصريين من مجرد التجمع الفيزيائي، حول النهر الي مجتمع سياسى ناضج، بدرجة نضج الوعي الاجتماعي المشترك، الذى تشكل في ظل اجماع، ظل يتنامى كلما كشفت الجماعة المصرية أنها- بالنحن- تصبح أكثرحيوية وصلابة بل وسعادة. فيقول الطهطاوى " كانت مصر مستعدة لكسب السعادة- أكثر من غيرها-، بشرط انتظام حكومتها، واجتهاد أهاليها، لأن اختلال حكومتها يخل بمزارعها، وذلك بخلاف غيرها من الحكومات....." ثم

يؤكد". لما كان رى مصر دائما صناعيا مدبرا، كان لايد فيه من حسن الادارة المائية،والضبط والربط فى تظهير الترع، وبناء الجسوروالقناطر،فاذا كانت الحكومة المتولية على مصر، سيئة التدبيرفانها تححف بالمصلحة العمومية،وهذا الخلل يترتب على عدم وجود حكومة مركزية " ويقول جمال حمدان عن المجتمع المصرى"...هو أساسا تعاونى منظم لا يعرف الفردية فى صورتها الضارية أو الدموية المتوحشة، ويدرك حتمية العمل الجماعى المنظم المنسق، وأن مصلحته ووجوده رهن بالتضامن والتكامل الاجتماعى بالنظرة المتفتحة،بلا أنانيات محلية أو نعرات ضيقة أو نزعة عدوانية..."

وإذا كانت غاية الجماعات الانسانية هى البقاء والاستمرار،فان ذلك الاستمرارىظل مشروطا،بفرص تلك المجتمعات فى تحقيق الاستمراروالتاريخ يسجل لنا العديد من الحالات التى افتقدت فرص البقاء لأسباب كثيرة منها: التصفية والتطهير العرقى، والتشردم والشتات، كالتتار والهنود الحمر،فاذا كانت الدولة المصرية قد نجحت فى اتمام العلاقة بين المجتمع واطاره الجغرافى،او ما يسمى بسياسة تأهيل الاقليم،فان نضج الجماعة المصرية فى ادراك عناصراستمرارها والحفاظ عليها، و الذى تبلورفى وعى جمعى مبكر، أوبمعنى آخرفى مفهوم النحن"قد ساهم فى دعم دور هذا المفهوم العميق، فى تأمين ديمومة الجماعة المصرية، وقيادتها فى اتجاه خيرها الجمعى، و قد كانت فادرة على فرض الموقف الذى تراه محققا لتأمين هذا الغرض.

النحن والخطر

لم تكن صياغة المصريين لمفهوم "النحن"لكسب السعادة واحكام السيطرة على النهر، وانما لمواجهة الأخطار،فقد عاشت مصرفى خطرفى معظم الأحوال ،فكان الخطر ظاهرة صحية شحذت منذ وقت مبكر الوعى القومى، وأرهفت الحساسية واليقظة الوطنية،واستبعدت احتمالات الانغلاق على الذات واللامبالاة بالعالم الخارجى . ولم يكن الخطر من الخارج فقط،وانما كانت أخطار الداخل أصعب وأشد وبالا، فالمركزية السياسية كانت عرضة للتفكك والانهياري فترات الاضمحلال، التى كانت مصر تعانيها لأسباب عديدة منها:

تضخم الجهاز البيروقراطى ومأ يعتريه من ترهل وفساد،مما يعجز السلطة عن أداء دورهافى الاستجابة لاحتياجات البنية الاجتماعية وهنا تتفجر صراعات الأقاليم وينزع أمراؤها نحو الاستقلال، فيعم الخراب الاقتصادى بانهيار نظام الري.

وهنا ينكشف للمصريين أن الوثوق بالدولة- كآلية للحفاظ علي التماسك البنائي ودعم استقراره-، ينبغي أن يكون محدودا، بفترات قوة المركزية السياسية وتوجهاتها الوطنية، وما تستطيع أن تقدمه للنهر من تنظيم، وما تنتشره من عدالة، وفي الأساس بما تحرص عليه من تجهيزات عسكرية، قادرة علي الدفاع عن استقلال الوطن- المعرض للغزو، باستمرار من حدوده المفتوحة- والتي كانت مهددة ممن كانت تقذف بهم الاطماع من البر والبحر، للاستيلاء علي جنة الوادي الخصيب.

خامساً : النحن...والآخر

ان وضوح وعمق مفهوم " النحن" عند المصريين أنار السبيل للجماعة المصرية ،كي تتعرف نقاط قوتها، فتحرص علي دعمها وصقلها بما يضمن لها الصمود والاستقرار، كما أن القلق الكامن في حاضر المصريين علي الاستقرار الضروري للابداع الحضاري والخطر الذي قد يتهدد مستقبلهم جعلهم يقبضون بقوة علي مفتاح " العروة الوثقى "وهو ثقافتهم!! بما تتضمنه من عناصر صلبة، صارت مع الزمن حصنا منيعا، ضد الاختراق والتفكيك .
وصارت "الحصافة الثقافية" قادرة علي تطوير المجسات الكاشفة" للاخر" الذي تعددت أغراضه، وتتنوعت نواياه، بدءا من الخصم الغازي والعدو الكاره ، وانتهاء باللاجئ الملتمس الحماية والأمان .

فردد المصريون في المثل الشعبي :

من أحبنا .أحبيناه ...وصار متاعنا متاعه

ومن كرهنا ..كرهناه ويحرم علينا اجتماعه

وهكذا اتخذ المصريون موقفهم الحضاري، من الآخر، منذ فجر التاريخ وهو موقف يسبق في النبل والرقى، كل ادعاءات المحدثين، حول قضايا قبول الآخر والتسامح ...الخ، ولايفوتنا أن نؤكد أن قيم التسامح واستيعاب الآخر كانت تسود مصر، في حقبة تاريخية حفلت بقيم الغزو وهيمنة منطق القوة، وشريعة العنف.

من هنا تتجلي لنا رحابة "النحن" المصرية، القادرة علي صياغة علاقتها بالآخر، بوعى ودون اى شبهة لتعصب أو تحيز، أو عدوان، لكنها قادرة علي التفاعل، بعناصرها الثقافية القوية، وبصورة عجز عن مواجهتها أعتى الغزاة، الذين سجلت لهم أوراق المؤرخين النصر العسكري على المصريين، والهزيمة الثقافية أمامهم!!

ولكن لأن المؤرخين يكتفون - عادة - بتسجيل الهزائم والانتصارات العسكرية، باعتبارها علامات القوة الجديرة بالتسجيل، ويتجاهلون "الجهاد الأكبر" أو المعارك الثقافية لذا أظن أن عليهم ان يتسلحوا بمناهج أنثروبولوجية و أن يتطوروا رؤية سسيولوجية كما فعل ابن خلدون. فمن الحقائق لتاريخية المعروفة أن التقدم التكنولوجي العسكى للهكسوس وامتلاكهم العجلات الحربية، قد ساعدتهم على النجاح، في غزو مصر، واحتلالها لكنهم فشلوا تماما في اختراقها ثقافيا، بل على العكس، استطاعت الثقافة المصرية أن "تديبهم" في أحماضها الثقافية القوية، فتحدثوا لغة المصريين ولبسوا لباسهم فاذا المهزوم "عسكريا" يصبح المنصور "ثقافيا". أما "الأخر" اللانذ بمصر، والباحث عن الأمان، فقد حظى - في ظلها - بما تمنى وأكثر، حيث يؤكد ألان .ب.لويد أن الأجانب قد شكلوا نسبة ملحوظة من السكان في مصر في المرحلة المتأخرة، من العصر الفرعوني ؛ فكان منهم التجار، والجنود المرتزقة والرحالة والدارسون، ويؤكد هيرودوت أن نبوة "آمون رع" في سيوة أعلنت ان مصر قد احتوت كل شيء قد غطته مياه الفيضان، وأن كل من عاش شمال الفنتين" وشرب من ماء النيل، فهو مصرى، كما اعتبر كل من لا يتكلم، اللغة المصرية غير مصرى.

وقد بدا واضحا أن المصريين قد وضعوا شروطا، لمن يلوذ بمصر، لا ينبغي العجز عن الوفاء بها، فالأجانب كان في امكانهم أن يصبحوا مصريين، اذا قبلوا ببساطة مصروطنا لهم وتبنوا الحضارة المصرية بكل جوانبها، وقد كشف المهاجرون "الكاريون" القادمون من آسيا الصغرى وأسلافهم عن قدرة ملحوظة على تمثل الحضارة المصرية، فاتخذوا لأنفسهم أسماء مصرية وديانة مصرية في حماس شديد، وهناك نصوص ونقوش مثل نص الأخوين "أتياواهى" و "أرياوراتا" في وادى الحمامات سنة (674-449) توضح بطريقة متميزة التمسير المتواصل للحكام الفارسيين.

ويوضح قبر "سى أمين" في واحة سيوة أن اليونانيين لم يكونوا بعيدين عن التأثر بالحضارة الفرعونية، وزاد من هذا الميل نحو الاندماج والتوحد الثقافى الواسع الزواج بين المصريين والأجانب

ساداً : مفهوم النحن يتطور بالتعددية

ويرفض الانقسام:-

اذا تساءلنا عن أسباب استمرار " النحن" في مجتمع ذى ارث ثقافى ضخم ،وتطراً على بنائه الاجتماعى التحولات المتباينة،فسوف نلاحظ أن هذا النحن قد اتسم بمرونة وقدرة هائلة على الاستيعاب، ومن ثم استطاع استيعاب تلك التعددية التى ميزت بناءنا الثقافى والاجتماعى والتى نجمت عن تعدد أنماط الانتاج، التى سادت المجتمع المصرى، فان الاستمرار يمثل سمة مصاحبة

للاقطاع، فالى جانب المحراث والشادوف، وغيرها من أدوات القرن العشرين قبل الميلاد فسوف نجد الادارة الكومبيوترية من نتاج النصف الأخير من القرن العشرين بعدالميلاد. فصارت "النحن" مفهوما يقبل التعددية- كسمة بنائية ثقافية- تفرضها الراقات التاريخية المتتابعة،لكن هذا"النحن" قد استطاع أن يتفادى الانقسام أو الانفصام، وذلك لأن مناطق الصلابة فى هذا المفهوم، قامت بصورة تلقائية بحماية مناطق السيولة، كما قامت مناطق السيولة بتليين مناطق الصلابة،حتى تستطيع استيعاب التغير والتعدد، فيما يمكن أن نسميه بجدلية السيولة/الصلابة. وسوف نلاحظ ذلك فيما يلى عند معالجة موضوع الدين.

سابعاً : النحن والدين

يمثل الدين عنصراً أساسياً فى التكوين الثقافى المصرى ، ويقدر ما يمثل الأساس الصلب للضمير الجمعى المصرى،ويقدر مايمثل من أهمية كعنصر ثقافى فاعل فى صياغة النسق القيمى للمجتمع،بقدرما كانت أشد العقائد الدينية تباينا تتقبل بتسامح داخل مصر، فكان تعدد الأديان هو الذى يجب التعصب الدينى،فصار التسامح الدينى دين ثان،وكان الاضطهاد والتشيع دائما يأتيان من الخارج وسرعان ما يلفظان الي الخارج ثانية.

فبقدر ما كان الدين يمثل أداة السيطرة للحكام والملوك فى أوروبا الاقطاعية، فانه فى مصر كان دافعا نحو الوعى الشديد بالذات الوطنية المقدسة التى افتنتها الأرواح الفردية لتضمن استمرار وبقاء الواحد الخالد الوطن الذى للواحد الباقي ...الله.

وإذا كانت الخرائط الدينية قد غيرت ملامح الخرائط السياسية لدول العصور الوسطى والقديمة، فان مصر تميزت بأنها المجتمع الذى أبى التمزق على الخرائط الدينية، بل انه قد استطاع أن يجذب الأديان السماوية، على خريطته الخاصة المتفردة بطبيعتها. ولعل هذا هو السر فى قول جمال حمدان"..صنعت مصر نسختها المسيحية الخاصة، ثم مصرت الاسلام بعد الفتح الاسلامى، فكانت النحن"تستلهم شعلة الايمان البازغة من كل دين سماوى ليقوم الضمير الجمعى المصرى بتشكيله، وفق صياغته الخاصة،فتزداد قوة الثقافة الدينية، بما يدعم تماسكها البنائى بدلا من أن تمزقها وتفرقها، كما حدث فى صراعات المذاهب الدينية فى أوروبا وآسيا. لذا نلاحظ أن المسيحية قد وجدت فى مصر الحاضنة للدين ما جعل مصر تتخذ من المسيحية رمزا وتعبيرا عن قومية مصر متطورة، سجلها عصر الشهداء الذين جرت دماؤهم على أرض مصر، لتدق أول مسامير" فى نعش الامبراطورية الرومانية، ولقد استطاعت مصر أن تطور نظاما للرهينة صار من أهم أسلحة

المقاومة الوطنية، وذلك بالإضافة لمهمتها الوطنية الأصيلة، فصارت الأديرة أهم الملاجئ للوطنيين.

وعندما ساهم الفتح الاسلامى فى تخليص مصر المسيحية من عسف الأباطرة الرومان،صارت راية الاسلام رمزا للقومية المصرية والعربية ، فى مواجهة التتار بعد أن حطموا حضارات عظيمة فى غل لم يسبق له مثيل، والا فلماذا انتظم مسيحيوا مصر فى جيش صلاح الدين الأيوبي لتحرير القدس، من الفرنجة الذين كانوا يدينون بالمسيحية، وكان ينبغى وفقا لنظرة التعصب الضيقة أن ينازكلك فريق لبنى دينه، وأن يرى (الآخر) الذى يدين بديانة مخالفة هو العدو، لكن الوعى الوطنى والثقافة المشتركة التى تجمع المسلمين والمسيحيين (الكل فى واحد وطنى)، هى التى صاغت ذلك الموقف الرائع للمصريين الذين ناضلوا من أجل بقاء الوطن الواحد الذى يدينون له بالانتماء والحب على اختلاف دياناتهم. ولقد اعتاد المصريون أن يحاربوا العدو الذى يتدين بالاسلام- لأنه لايكفى أن يكون الدين سببا فى قبولهم للهوان- لذا فقد قاموا بضراوة المغتصب العثمانى سليم الأول، الذى سلب مصر أعظم فنانيها وصناعها المهرة بنفيهم الى الأستانة، ليؤسسوا النهضة الصناعية فى تركيا على النمط المصرى،وقد اعتبروه" الآخر" البغيض لأنه كان يهدد ثروة مصر ويسلبها حريتها، بينما نراهم يحيطون بالضابط الشاب محمد على لأنه أتى بحلم النهضة للأمة المصرية، 1805 وأخلص لها، فانطلق تحت لوائه جيش من رجالها الى الأستانة - عاصمة الخلافة العثمانية -التى أذاقت مصر المحن، فكالت لها مصر الصاع صاعين، فى غضون عشرين عام فقط.

ثامناً : النحن والطرق الصوفية

ومما لاشك فيه أن مفهوم النحن قد واجه مشكلات الهيمنة السياسية لدين على آخر،من خلال المؤسسات الرسمية للدولة ،باستخدام الايحاءات الايديولوجية التى تجعل أحد العناصر الدينية فى موقع التفوق السياسى، وكان الحل الثقافى هو التحرر من سيطرة المؤسسات الرسمية، بالخروج الى براح الطرق الصوفية حيث تختفى لغة الهيمنة الايديولوجية، وتسود روح الايمان -غير المحدود بمؤسسات

رسمية-،ومن يتجه الى الموالد واللقاءات الصوفية سيستمع الى أناشيد صوفية يرددھا المنشدون أسوق منها على سبيل المثال:

هنيئاً لأهل الدير فى حضرة القدس
بشمس جلت أنوارها ظلمة الرسم
تجلت عن الأشباه وهى فريدة

وليست بشكل فى الفروع وفى الجنس

وهى أنشودة طويلة تتغنى بشمس الهداية، التى تغمر الدير بنورالقدس ويحفظها من ينتمون للطرق الصوفية الاسلامية كالحامدية الشاذلية وغيرها من الفروع الصوفية الشهيرة. وفى اطار الثقافة الشعبية اعتاد المصريون تفسير الأحلام، التى تزورهم أثناء النوم، فى اطارثقافى شديد الرقى، يؤكد الوشائج التى توحد الأمة. ومثال ذلك:

عندما يقص المسلم رؤياه على ذويه قائلاً: لقد رأيت فى منامى نصرانى يستبشر السامعون قائلين: خيرعظيم وبشرى لك...فالنصرانى فى منام المسلم نصره كبرى، وكذا الكنيسة والقس والصلبان... الخ . تفسر كل هذه الرموز بصفاتها البشري للفتح العظيم والمكانة المرموقة، ومن يحظى بزيارة ضريح القديسة "تريزا"بحى شبرا بالقاهرة سوف يلاحظ أن معظم النذور والهدايا القيمة والأيقونات، قد قدمها مسلمون، يثقون كل الثقة فى مؤازرة ومساندة القديسة، لهم فى المحن والأزمات،ومن أشهر هؤلاء العنديل الأسمر عبد الحليم حافظ رحمه الله، الذى ملأه الشعور بالامتنان والأمل فى الشفاء، عندما زارته القديسة فى منامه بالمستشفى بلندن قائلة له:

"قم من سريرك وعد الى مصر سليماً معافى" وعاد بعدها الى مصر عقب اعلان طبيبه الانجليزى شفاءه المعجز . ولقد ساهم الأزهر فى فترات الازدهاروالصحة بدوره فى دعم النحن"عندما أنشأ "الرواق القبطى" الذى قام بالتدريس فيه أعظم الأساتذةوالشيوخ ومنهم الشيخ محمد عبده والشيخ رفاعه الطهطاوى من هذا كله نتأكد أن المصريين البسطاء مبدعي الثقافات الشعبية، قد أبدعوا فى تطوير مجال عام ثقافى/دينى قادر على استيعاب التباين والتعدد ، وهو قادر كذلك على اغلاق المجال العام فى وجه الاختراق الذى حاوله أعداؤنا على مر التاريخ ، تجليات النحن وثورة1919يقول وليم سليمان"لقد ساند التراث المشروع الوطنى المصرى وقراءة التراث لفضائل مصر تصور الوطن فى أعظم صورة، وقد ساند هذا التراث التعددية، أو ما نطلق عليه اليوم الوحدة الوطنية فالتراث يعيش داخل الجماهير، وقد جاءت لحظة الصدق فأخرجت هذا التراث...فصيغة ثورة 1919 لاتختلف عن صيغة المدينة المنورة وأتصور أن نلجأ الآن الي التراث" وإذا راجعنا خطاب القمص سرجيوس فى الأزهر فى أحداث ثورة1919 نجده يعلن باسم أقباط مصر:إذا كان تحرير مصر يحتاج الي مليون شهيد قبطى،فاننا على استعداد لدفع هذا الثمن ليخرج الانجليز من بلادنا" أما الزعيم مكرم عبيد فقد هتف فى حشود المسلمين والأقباط يقول:اللهم اجعلنا نحن النصاري لك وللوطن مسلمين ،واللهم اجعلنا نحن المسلمين لك ،وللوطن أنصارا "كما حدد الزعيم مكرم عبيد هويته قائلاً:

أنا مسيحي الديانة...مسلم الثقافة... و قد لخص بذلك العناصر الأصيلة للثقافة القومية المصرية القادرة على استيعاب الكل فى واحد.أما الزعيم ووصا واصف الذى ناضل كتفا بكتف مع الزعيم سعد زغلول وجمع الأموال التي أبدع بفضلها الفنان محمود مختارتمثال نهضة مصر،وقد حظى ووصا واصف بشعبية جارفة بين المسلمين والمسيحيين على السواء،وحيث توفاه الله حظت جنازته التاريخية بجموع الشعب، التي كانت تهتف بقلوب ملهوفة على محنة الوطن وهي تودع بطلها القومى "اشك الظلم لسعد يا ووصا" فهل من الممكن أن يصدر مثل هذا الهتاف الا عن روح واحدة لثقافة لا تتخيل أى انفصال أو تمايز بين زعيم مسلم وآخر مسيحي أقصد بين سعد زغلول ووصا واصف؟

ان تحليل مضمون هذا الهتاف يكشف لنا بوضوح :كيف أن الجماهيرالمسلمة التي هتفت بهذه الكلمات كانت مؤمنة فى أعماقها بأن الزعيمين وقد ماتا فى سبيل الوطن الواحد مصر فمن الطبيعي أن يكون مثواهما الجنة التي ادخرها الله للشهداء والقديسين، فهل كن من الممكن أن تتصورالجموع المسلمة فى تلك الجنازة أن يذهب سعد الى الجنة لكونه مسلما، ولايصحبه ووصا لكونه مسيحي،ان الهتاف نفسه تعبير تلقائى عن عمق الايمان المستتير بأحقية أبناء الوطن المخلصين فى جنة الله على اختلاف توجهاتهم الدينية.

ويلاحظ أن محاولة تطبيق سياسة "فرق تسد"من جانب المحتل الانجليزى قد ووجهت بالفشل الذى سجلته مذكرات اللورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة عندما سجل: أن الأقباط قد واجهوا الانجليز، بروح خالية من الصداقة، وأنه لم يجد أى فارق بين سلوك الأقباط والمسلمين، سوى فى الانتظام فى الكنائس والجوامع .

وعندما استاءت الحركة الوطنية من مخالفة يوسف وهبة للتوجهات الوطنية بقبوله رئاسة الوزارةالمقترحة من لجنة ملنر،قام أحد الشباب الوطنيين المسيحيين بمحاولة اغتياله حتى لايعطى المستعمر فرصة اشعال نارالفتنة بين أبناء الامة.

اذن لم يكن مسيحي مصر أقلية كأكراد العراق أو أتراك قبرص ، فهم ليسوا أقلية وافدة أو متوطنة،لأنهم مصريون كالمسلمين من أبناء وطنهم دون زيادة أو نقصان، ومصر لم تكن فى أي وقت مجموعة قوميات،كما هو الحال فى الاتحادين السوفييتي واليوغسلافي السابقين،والأقباط ليسوا أقلية ديموغرافية فهم لايعرفون"الجيتو"بل هم منتشرون بين مواطنيهم المسلمين علي طول القرى التي لاتميز فيها بين دار القبطي أو المسلم، وعلي طول أحياء المدن وعرضها،وهم يتوزعون علي المهن، وفي مختلف أجهزة الدولة ومؤسسات المجتمع. والأهم أنهم يحملون نفس الملامح النفسية

والعضوية لمجموع الشعب المصري كما يشتركون في نفس القيم والعادات والتقاليد، بل انهم يما رسون نفس العادات السيئة التي يدعي بعض رجال الخطاب الإسلامي أنها سنة اسلامية كالختان مثلا، وهم ليسوا اقلية سياسية لأنهم لا يتكادسون بأحزاب بعينها وانما هم منتشرون بجميع الأحزاب، كما أنهم يتوزعون علي جميع الطبقات والفئات الاجتماعية. اذن اذا كان المجتمع المصري قد استطاع الافلات من محاولات التقسيم والانقسام علي ارضية دينية، بقوة" النحن". فما هي المتغيرات التي دفعت بنا الي منطقة الأزمة.

تاسعاً : النحن بين الفاعل الثقافي القديم

والمفعول به الجديد

مارس المصريون في الماضي دورا فاعلا في صياغة عناصر ثقافتهم القوية الرحبة، وقد استطاعت هذه الثقافة أن تمارس انتشارا واسعا في المنطقة العربية، وآسيا وأفريقيا وبلغت أعلى درجاتها في ظل مشروع النهضة في القرن الـ19 والـ20، الي أن أحكمت الأزمة الاقتصادية سيطرتها في الفترة الأخيرة لتدفع بأعداد كبيرة من المصريين للهجرة المؤقتة الي شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج التي مثل اكتاف البترول فيها طفرة تحولت بسببها مجتمعات بدوية فقيرة الي مناطق جذب للعمالة في الوقت الذي مثلت مصر فيه أكبر مناطق تصدير للثروة البشرية من جميع الفئات الاجتماعية. وهنا ينبغي أن نشير الي أن عمليات التثاقف" التي تمت بين من ينتمون الي الأفكار الوهابية المسيطرة علي شبه الجزيرة وبين المهاجرين المصريين قد تمت علي ارضية مشتركة هي الانتماء المشترك الي الدين الاسلامي لكن التثاقف الفاعل كان من جانب الثقافة البدوية المدعومة بالمال والنفوذ الديني، وقد تسربت تلك التيارات السلفية الي المجتمع المصري عبر العائدين من رحلة جمع المال وقد تعرضوا لعملية اعادة تشكيل الأفكار والاتجاهات بعد أن فقدوا الثقة في الأرضية الثقافية التي خرجوا من أعطافها نتيجة تعرضهم للتشكيك في الذاكرة الجمعية واعدة كتابة التاريخ القومي العظيم من خلال رؤية معادية لعذا التاريخ الذي صار نهبا للعبث والتخريب والتجزؤ. من ثم تمكن الفاعل الثقافي الجديد - الذي يتبرأ من قيم الحداثة والتقدم- من السيطرة علي عقول البسطاء وأنصاف المتعلمين، في اتجاهات هدامة، أهمها انقلاب منظومة القيم في اتجاه احلال الشعور بالعار والخجل مما كان يملؤهم فخرا وعزة، و صار تقييم تاريخ الفراعنة التليد يتم علي ارضية أسطورية معادية، وصارت هناك صياغة جديدة "للنحن" الاحادية المغلقة علي ذاتها، وهي "نحن" الذين يرتدون الجلباب الأبيض من الرجال والمختمرات والمنقبات من النساء. وهنا تفقد النحن" الجديدة دورها الثقافي الفاعل بعد أن صنفت الناس الي صنفان:-

مؤمن علي طريقته وهو الجدير بالانتماء للنحن" وآخر كافر ولو كان مسلماً، فمابالنا بغير المسلم! وفي هذا الاطار المخيف رفع بعض الأبناء عصا التأديب علي الآباء باسم الحفاظ علي المقدسات. وبدلاً من أن يمارس البسطاء دورهم التلقائي في دفع حركة التقدم والتغيير نحو الأفضل صاروا من دعائم الجمود والتراجع، بعد أن اخذوا قبلوا الخروج من دور الفاعل الثقافي ليصبحوا مفعولاً به.

وفي غياب دور الدولة الفاعل في الحفاظ علي عناصر النحن "من التثنت والتفتيت تسللت من كعب" أخيل" الي منارة العالم الاسلامي التي أعلنت من شأن الاسلام رؤية ظلامية تسللت بصورة منظمة الي مساجد مصر وزواياها في ريف مصر ومدنها ؛ فساد خطاب ديني يصدر علي النقد، ويكفر الابداع ويثير المعارك الشكلية حول قضايا وهمية لاتمت للواقع بصلة في مجتمعات التنمية، ويسود التعصب والتشنج لغة خطباء المساجد، الذين تخرج لغتهم سلفية ينفصلون بها عن واقعهم أثناء حديث الجمعة، الذي يستدعون أثنائه الماضي النقي الذهبي، ويدينون الواقع الذي يصبح هدمه واجبا دينياً مقدساً.

عاشراً : الخطاب الديني المضاد ومزيد من تفتيت النحن:-

وكرر فعل طبيعي لرفض الآخر والحث المستمر علي اختزال النحن الي أصحاب الدين الواحد-ان لم يكن المذهب الواحد-تظهر اتجاهات سلبية لدي بعض مسيحيي مصر، نحو العزلة والانكماش، والانسحاب من المركزي الهامش الاجتماعي والسياسي يأساً مما أصاب بلادهم من تحول يندري بالخطر وانعدام الأمان في وطن تتهدده آليات التفتيت، فنلاحظ ارتفاع معدلات الهجرة الي كندا واستراليا والولايات المتحدة، بحثاً عن وطن آخر في المهجر بعد أن كانوا همزة الوصل وأداة الربط والصدقة بين المسيحية والاسلام وفي كتابه خريف الغضب يؤكد هيكل كيف لعبت الكنيسة دورها الوطني برفض الحج الي القدس منذ سبعة وعشرين عاماً بالرغم من الصلح الرسمي بين مصر واسرائيل، كما رفض المسيحيون منذ سبعين عاماً مبدأ حماية الأقليات وهكذا تدفع الفتنة الطائفية التي يثيرها الاسلام السياسي مسيحيي مصر الي مواقف دفاعية، تضرب مفهوم النحن " وتضر به من جانبها وقد تأكد ذلك بوضوح عندما بدأت الكنيسة تحل تدريجياً محل الدولة في التحدث باسم المواطن المسيحي الذي أخذ بدوره في الانسحاب من الشعور الطبيعي بالمواطنة التي يتساوي في ظلها المصريون علي اختلاف المشروع الغربي والنحن

وإذا كنا في الماضي قد اعتدنا الحياة في ظل الأخطار التقليدية ومواجهتها، فعلينا أن نتفهم أن الخطر الجديد قد تطور بتطور الخصم وما يطره من آليات المواجهة، فقد استطعنا أن نواجه عنف

المحتل بقوة الثقافة الداعمة لقوة السلاح في الماضي، أما الآن فان الخصم صار متعدد الأوجه، متعدد الأغراض وصارت الضربات تتجه للثقافة - معقل القوة الدائم.

وعندما قرر ستيفن لوكس في تحليله المتميز "ان أفضل ممارسات القوة وأعظمها تأثيرا هي تلك التي لا تستدعي عنفا" كان يعني أن ممارسة القهر بصورته التقليدية عن طريق العنف، قد لا يحدث النتائج المطلوبة، بينما صارت الاتجاهات الحديثة لممارسة القوة تميل الي العمل علي تشكيل أفكار الشعوب المستهدفة لعلاقة التبعية.

ومن يتأمل نظرية الموزايكا السياسية يتأكد من النزعة التأميرية لدي المتربصين بأوطاننا، وذلك برسم صورة ممزقة للمجتمعات العربية والأفريقية، وفي مقدمتها المجتمع المصري الذي صار مستهدفا لهدم تماسكه البنائي وتفكيك ضميره الجمعي حيث يتم تصعيد الخلافات المذهبية ليس بين المسلمين والمسيحيين فقط، وإنما بين السنة والشيعية والنموذج العراقي أقوى دليل يومي ،أما المسيحيين، فتتم محاولات تفكيكهم الي صراعات بين الأرمن والكاثوليك والأرثوذكس والسريان والبروتستانت... الخ . وهكذا يلعب المشروع الغربي تحت مسماه الخبيث " حماية الأقليات" دوره في حماية مصالحه، وفي المزيد من تفكيك البناء الاجتماعي المتماسك.

حادى عشر : النحن والفصل بين عنصري الانسانية.

وقد تضافرت اتجاهات التقسيم من الخارج مع آليات التفكيك من الداخل لتفصل بين عنصري الانسانية؛ الرجال والنساء وذلك بتأثير عاملين أساسيين :-

الأول:- ثقافة الاستدعاء والطرده وأقصد بالاستدعاء تلك الدعوة التي هتفت بها مؤسسات المجتمع وقيادات الحركة الوطنية ودعاة النهضة- كل بطريقته- لاستدعاء نساء مصر من هامش الحياة الاجتماعية الي قلب "الفعل" الاجتماعي السياسي الايجابي سواء في مطلع القرن أو عقب قيام ثورة يوليو 1952، فسارت نساء مصر في مظاهرات 1919 وخرجن للتعليم والعمل وأثبتن القدرة علي أداء أشق المهام، وبالتالي كشفت الحركة النسائية النشطة عن حقيقة ما يمكن أن تتجزه النساء من الجهاد الأكبر" وكان المتوقع أن يكافئ المجتمع نساءه بتغيير جذري في رؤيته لقيمة نسائه، وفي ثقافته الذكورية السائدة، لكن الواقع أكد أن المرأة المصرية قد استدعت لمهام مؤقتة وأن الاستدعاء كان لقوات الاحتياط النسائية، وبالتالي يصبح "تسريح" الجيش النسائي منطقيا، طالما لم يطرأ تحول جوهري علي النسق القيمي السائد، خاصة وأن القوي المحافظة كانت تسرع باستدعاء النماذج التراثية لايقاف حركة التغيير، وإذا كان المجتمع الذي رحب بتضحيات نسائه عندما أطلق نفيير الاستدعاء، قد صار يضيق بمطالبتهن بالحق في" الجهاد الأصغر" أقصد العمل والتعليم، فمن

الطبيعي أن نسجل علي المجتمع انتهازية" مواقفه تجاه نسائه، بطردهن من منطقة الفعل" الي منطقة الهامش. بدعوي أهمية الأدوار التقليدية وثبات تقسيم العمل بين الجنسين Division of labor

ثاني عشر : المرأة " آخر" أم نحن

من يبحث عن موقع المرأة في الخطاب الديني السائد يلاحظ انه يتناول نساء المجتمع بصفتهن " آخر" غير مقبول الالبشرط اختزالهن الي مجرد متعة شرعية، في حيز جغرافي هو جدران المنزل بدعوي "وقرن في بيوتكن" وهو خطاب يستهدف استدعاء المرأة التي تحظى بمراكز مهنية مرموقة الي الانكماش في أدوارها التقليدية، بدعوي تكريمها وحمايتها من "البهدلة" مع ما يمارسه نفس الخطاب من تجاهل للعاملات بالمهن الدنيا؛ كالخدمة المنزلية والعمل في الحقول والأسواق، لأنها أعمال لا ينافس عليها الرجال، ونظرا لعجز مؤسسات الدولة عن ابتكار حلول لمشكلة البطالة فانها تترك المجال مفتوحا لتفسيرات زائفة لمشكلة البطالة منها أنها جاءت كنتيجة لمزاحمة النساء للرجال في مجالات الرزق، والمدمخش أن هذه الأفكار تزوج بين النساء اللاتي تأثرن بها، ومن يطلع بريد الأهرام منذ عشر سنوات يلمس كيف صدم الأب الذي أنفق علي ابنته آخر مدخراته حتي تخرجت من كلية الهندسة، عندما فوجئ بها تصر علي البقاء بالمنزل دون عمل في انتظار أن "المسجد سوف يزوجه" ومن الاستماع الي مجموعة من خطب الجمعة، ودون جهد كبير لتحليل مضمونها، تبدو الصورة الاجتماعية للمرأة المصرية مخيفة، حيث تتردد تعبيرات "الشيطانات" و"الفاسادات" وصاحبات الكيد العظيم، واللاتي ينافسن الشيطان في الخبث والدهاء، وقد نجح هذا الخطاب الذي تغلغل في الثقافة الرجالية السائدة في بلادنا في صنع حالة زائفة من "الاستنفار" ضد النساء، فصار المجتمع مستقرا من نسائه بصورة لافتة، يلاحظها أي غريب علي ثقافتنا.

وإذا كنا قد استعرضنا المشروع الغربي ومشروع الاسلام السياسي وكيف أصبحا يمثلان خطرا حقيقيا علي التماسك البنائي للمجتمع المصري فمن المنطقي أن نختم بالمشروع الصهيوني المعاصر باسم الحدود الأمانة المفتوحة، فهو لا يكتفى بالاتفاقيات التي أوقفت الصدام العسكري مع مصر، لأن درس التاريخ- الذي يعيه جيدا- يؤكد له أن مائتا عام من الاحتلال الصليبي، لم تمنع صلاح الدين الأيوبي من تحرير القدس بجيش قوامه المصريين، لذا فانه لا يتوقف عن مطاردة الذاكرة الجمعية لشعوبنا، بهدف طمسها، والقطيعة مع تاريخنا، فنكف عن شحذ الوعي بـ:

من أحبنا أحببناه ومن كرهنا .. كرهناه

فيصبح لسان حالنا قنوط ويأس أبي زيد الهلالي في مواجهة محنة التغريبة

من قلة المحنة... وقعنا علي الجفا

وخذنا من دار العدو حبيب

ألم يتجه الشباب المحاصر بجفاء الوطن الى دار العدو ليتخذ عملا

وزوجة ووطن !!؟

لقد سارت قياداتنا السياسية أول الطريق ،بل وتبرعت بغسيل مخ الأجيال، واتخذت القرارات بتغيير مناهج التاريخ للنسي من (نحن) ونفقد البوصلة الحساسة" التي قادتنا الي سواء السبيل. ثم تظاهر الجميع بالدهشة والصدمة ،عندما لم تتأخر النتائج فرأوها في حياتهم وكانوا يظنون أنها ستتأخر علي الأقل الي ما بعد رحيلهم من الساحة السياسية.

الخاتمة والتوصيات:

ان القلق الوطني الذي ينتابنا جميعا علي جماعتنا الانسانية وقد بدأت تخرج من التاريخ والزمان والمكان لتدخل منطقة الحقيقة الأبدية التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تسمح بوجهة نظرمختلفة وذلك بدفع الدراويش"وأصحاب العمائم الذين لاتعنيهم الحقائق التاريخية،أو خصوصية الشعوب أو نوعية المجتمعات،بقدر ما يهمهم أن يسود تصورهم الخاص للتاريخ ،حتي وان أدي هذا بنا الي "اجتزاء" تاريخنا الطويل والاكثفاء بالرجوع للتاريخ الاسلامي المحدود زمنيا،مما يؤثر سلبا علي فهمنا لقوانين تطور البناء الاجتماعي المصري.

ولم يأت اتجاهي لبحث موضوع "النحن" منطلقا من نية تأسيس حالة من حالات الانغلاق علي الذات الوطنية، والاكثفاء باستدعاء الماضي التليد ،طلبا للموعظة والحكمة وبحثا عن طوق النجاة البنائي،وانما تأتي محاولتي مكملة لجهود سابقة لباحثين ومتقنين اكتشفوا كيف استطاعت شعوب كثيرة ؛ مثل الصين وفيتنام وايران والجزائر وأمريكا اللاتينية وبعض الدول الأفريقية.

ومن ثم فقد صارت الدعوة واضحة لتأسيس علوم اجتماع وطنية ودقيقة لا تتجذب للنماذج الاجتماعية الغربية التي تصيبنا بالاغتراب الثقافي واللافاعلية ووبساعد الاتجاه الوطني لتلك العلوم علي تعميق فهمها لخصوصية الشعوب ولقدراتها علي الخلق والابداع بما لديها من رصيد تاريخي طويل وتجارب معاصرة أدت بها الي التحرر والاستقلال.

ان الحاح الهم البنائي وقسوة ما يقذف به الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي من مشكلات - لم تكن تخطر لنا علي بال - يجعلنا راغبين بشدة ان لم نكن مضطرين الي خوض غمار موضوعات

نحتاج عند معالجتها، الي الففزمجالات اقليمية لعلوم أخري،فقد ظن الكثيرون أن استدعاء الذاكرة الجمعية للمجتمعات هوشأن تاريخي يهم الباحث في التاريخ، ولايطلبه السسيولوجيون الا عند الضرورة القصوي، وذلك علي الرغم من اشارات دوركيم الي موضوع الوعي الجمعي ،ودوره الأساسي في تطويروتشكيل ضمير الجماعة الاجتماعية ولأن تشكل الذاكرة الجمعية للشعوب يمرعبرالتعليم والحكايات والطقوس والأساطير والحياة المادية -أيضا -فان فهمها واستيعابها يشبه محاولة تشكيل الزئبق في تشكيل محدد،خاصة أن الذاكرة لا تسكن الوثائق المكتوبة، ولا ترقد علي أرفف الأرشيف في انتظار أن نكتشفها ،فمن أهم سماتها أنها انتقائية،متناثرة،مبثوثة هنا وهناك ويحتاج الأمر تضافر جهود السسيولوجيين والانثروبولوجيين فضلا عن المؤرخين وأظن أن محاولتي البحث عن النحن" داخل الطبقات "الجيولوجية"لوعي الجمعي المصري هي بداية أرجوأن أنجح في تطويرها الي دراسة مستفيضة في اتجاه انعاش" الذاكرة الجمعية"المصرية كآلية من آليات الدفاع عن مستقبل الوطن.

فلقد أدي قلق غالي شكري علي مايعتور العقل الجمعي المصري من ارتباك الذاكرة الي الخوف من أن تأتي لحظة،يطفئ فيها رجل الشارع المصري- الذي سيطرت علي عقله سلاطين الظلام- جميع الأنوارليهدد ظلام العقل الجمعي -في غياب التربية المستنيرة. عقل النخبة ذاتها؛ سواء بعزلها أو بتعميق الفجوة بينها وبين المجتمع ككل فيصبح رجل الشارع من أقوى دعائم بنية السقف الفكري التي يتضاعف انخفاضها فوق الرؤوس.

لكنني أتصورأن الدين لم يكن مسئولا قط عن التدهور الذي لحق بمفهوم النحن" وانما كان الدين وراء ابداع مجالات عامة تحرر من خلالها المصريون من هيمنة الحكام الظلمة،وإذا كان المجال العام في أوروبا قد ضمن استقلاله وحرية بوسطة الدساتير والقوانين الأوروبية فان المجال العام في مصر قد حقق استقلاله وتفرده منذ فجر التاريخ ،عندما تعرف المصريون علي مصادر قوتهم الثقافية، فزادوها قوة وأصبحوا الفاعلين الحقيقيين في الحفاظ علي مجالهم العام من قبل أن يسميه "هابرماس" باسمه الحديث.

قائمة المراجع:

- 1- السيد عفيفي- الأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية لعودة ظاهرة الحجاب، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية. كلية الآداب.جامعة القاهرة،تقارير بحث التراث والتغير؛ الكتاب الأول، الطبعة الأولى 2002.ص ص313.

- 2- جيمس هنري بريستد: فجر الضمير. ترجمة سليم حسن. الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1999 ص ص 141، 345، 165.
- 3- جمال حمدان: شخصية مصر (الوسيط)، القاهرة، دار الهلال 2001
- 4- ريتشارد اي. نيسبت: جغرافية الفكر، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، فبراير 2005، ص ص 167.
- 5- حسن حنفي: التراث والتغير، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية. كلية الآداب. جامعة القاهرة، تقارير بحث التراث والتغير؛ الكتاب الأول، الطبعة الأولى 2002. ص ص 211.
- 6- حسن حنفي: التراث والعمل السياسي، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية. كلية الآداب. جامعة القاهرة، تقارير بحث التراث والتغير؛ الكتاب الأول، الطبعة الأولى 2002. ص ص 313.
- 7- حسن حنفي: الفكر العربي المعاصر. قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة، ص ص 201
- 8- حسين كفاي: المسيحية والاسلام في مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2001
- 9- حسين مروة: مدخل الي نقض الفكر الطائفي الفارابي، بيروت لبنان 1989
- 10- طارق البشري: الجماعة الوطنية العزلة والاندماج، كتاب الهلال، ابريل 2005
- 11- عبد الهادي عبد الرحمن: العرب... اللاوعي التاريخي والوعي بالتاريخ، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، الكتاب الخامس والسادس عشر، يونية-يولية 1995، ص ص 115-125.
- 12- عائشة شكر: تغير البنية المجتمعية وتأثيره علي الشخصية المصرية، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية. كلية الآداب. جامعة القاهرة، تقارير بحث التراث والتغير؛ الكتاب الأول، الطبعة الأولى 2002. ص ص 219 .
- 13- غالي شكرى: ثقافة النظام العشوائي، القاهرة، كتاب الأهالي رقم 50 نوفمبر 1994
- 14- محمد الجوهري: التراث والتغير الاجتماعي، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية. كلية الآداب. جامعة القاهرة، تقارير بحث التراث والتغير؛ الكتاب الأول، الطبعة الأولى 2002. ص ص 67-11.
- 15- مجموعة من أساتذة الجامعات : التراث والتغير الاجتماعي: تقارير بحثية القاهرة، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية ،كلية الآداب جامعة القاهرة، الكتاب الأول، الطبعة الأولى 2008.

- 16- Habermas, J. The structural Transformation of the Public sphere, Trans. by T. Burger, Polity Press, London , 1989.
- 17- Cahhoun, G. (ed.) Habermas and the public sphere, MIT.prese, Cambridge, 1992.
- 18- Salvatore, A. The Public Sphere: Liberal Modernity, Catholicism and Islam, Palgrave, Macmillan, 2007.
- 19-James Fentress, Others: Social memory, Oxford, UK ,1994 , PP 11-38
- 20- Steven Lukes : Power , Cambridge University , The Anchor press LTD, 1974 , PP 34-57.